الاستدراج

في دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأبيه في سورة مريم

إعـداد

د/ منى طه الداودي محمد

مدرس البلاغة والنقد

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

فرع جامعة الأزهر ببورسعيد

١٤٤٤هـ- ٢٠٢٢م

ض

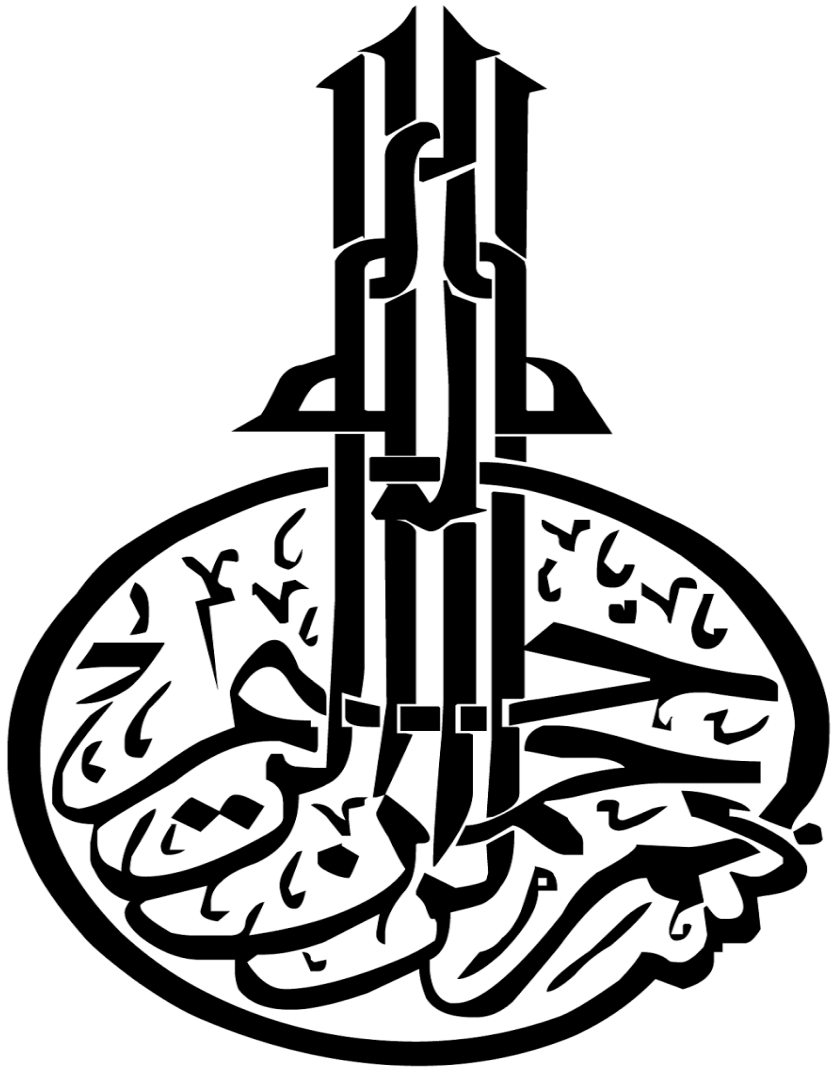

الاستدراج في دعوة إبراهيم ــ عليه السلام ــ لأبيه في سورة مريم

منى طه الداودي محمد
قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، بورسعيد، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني:
Monamohammed2202.el@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

انتظم البحث في مقدمة، وتمهيد، وخمسة مطالب، يتلوها خاتمة، وفهارس، أما المقدمة فقد تناولت فيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطة البحث، والمنهج المتبع فيه، وفي التمهيد جاء الحديث عن ثلاثة أمور: الأول: مفهوم الاستدراج. الثاني: قيمة الاستدراج وأثره في تقرير المعنىٰ. الثالث: علاقة الاستدراج في دعوة إبراهيم ــ عليه السلام ــ لأبيه بسياق السورة. وأما عن مطالب الدراسة فقد جاءت علىٰ النحو الآتي: المطلب الأول: الاستدراج بإثارة غريزة الفكر وإقامة الحجة العقلية، وفيه يحاول الخليل أن يظهر لأبيه بطلان ما هو عليه من عبادة الأصنام، بإقامة الدليل والحجة، واستدعاء الغريزة الإنسانية التي من شأنها أن تبحث عن الأسباب، وتفتش عن الأسرار. المطلب الثاني: الاستدراج بالرفق والتواضع وحسن الأدب، وعدته في هذا الطريق: اللين في الخطاب، والرفق في الحديث، وخفض جناح الذل من الرحمة لأبيه؛ علَّه يتأمل في حاله، ويتفكر فيما يؤول إليه أمره إن هو استمر علىٰ ما هو عليه من عبادة غير الله. المطلب الثالث: الاستدراج بالتنفير والتثبيط عن طريق الضلال، فيحاول إبراهيم ــ عليه السلام ـ أن يُبَغِّضَه في آلهته التي يعبدها، وأن يبيِّن له حقيقة عبادته بأنها اتباع للشيطان، واقتفاء لأثره. المطلب الرابع: الاستدراج بالتحذير من سوء العاقبة، فيبرز له سوء العاقبة والمنقلب الذي يترتب علىٰ شركه، واتباعه الباطل. المطلب الخامس: الاستدراج بترقيق القلب عن طريق الهجر

والوداع، فعندما لم تؤت الطرق السابقة ثمارها المرجوة، لجأ إلىٰ الهجر والوداع ؛ لعل قلب الأبوة يرق إليه، ويحدو به إلىٰ قبول نصحه. وأخيرًا تأتي خاتمة البحث وتحوي أهم النتائج التي توصل إليها البحث. ثم الخاتمة وفهارس البحث، وتشتمل علىٰ فهرس للمصادر والمراجع، وآخر للموضوعات.

الكلمات المفتاحية: الاستدراج- دعوة – إبراهيم- إيثار – وسائل.

The luring in the supplication of Abraham - peace be upon him - to his father in Surat Maryam

Mona Taha Al-Dawoody Muhammad
Department of Rhetoric and Criticism, College of Islamic and Arabic Studies for Girls, Port Said, Al-Azhar University, Egypt.
Email: monamohammed2202.el@azhar.edu.eg

Abstract:

The research was organized in an introduction, a preface, and five demands, followed by a conclusion and indexes. As for the introduction, it dealt with the importance of the topic, the reasons for choosing it, the research plan, and the method used in it. The second: the value of luring and its impact on determining the meaning. The third: the relationship of luring in the supplication of Abraham - peace be upon him - to his father in the context of the surah. As for the requirements of the study, they were as follows: The first requirement: luring by provoking the thought instinct and establishing the rational argument, in which the boyfriend tries to show his father the invalidity of his idolatry, by establishing evidence and argument, and summoning the human instinct that would search for reasons and search for secrets. The second requirement: luring him with kindness, humility, and good manners. His promise in this path: softness in speech, gentleness in speech, and lowering the wing of humiliation out of mercy for his father. Perhaps he is contemplating his condition, and reflecting on what will happen to him if he continues on what he is upon in terms of worshiping other than God. The third requirement: luring away by alienation and discouragement through misguidance, so Abraham - peace be upon him - tries to hate him in his gods that he worships, and to show him the truth of his worship as following Satan, and following in his footsteps. The fourth requirement: to lure him in by warning him of a bad outcome, so he highlights the bad outcome and the turn that results

from his polytheism and his false followers. The fifth requirement: luring by softening the heart through desertion and farewell, so when the previous methods did not bear the desired fruits, he resorted to desertion and farewell; Perhaps the heart of fatherhood lives up to him, and leads him to accept his advice. Finally comes the conclusion of the research and contains the most important findings of the research. Then the conclusion and indexes of the research, and it includes an index of sources and references, and another for topics.

Keywords: Luring - Invitation - Ibrahim - Altruism – Means

المقدمة

الحمد لله حمدًا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام علىٰ الرحمة المهداة أشرف المرسلين، وعلىٰ آله وصحابته الكرام والتابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، أما بعد:

فإن الاستدراج فن يحتاج إلىٰ ملكة خاصة، وذوق رفيع، وموهبة طيِّعة، يعمد إليه المتكلم ليحقق الغرض من كلامه، ومقصود حديثه، بأسلوب يتسم ـ من وجه ـ بالسلاسة والانسياب، والعذوبة والخلابة، ويتسم ـــ من وجه آخر ـ بالمنطق والعقلانية والإقناع؛ إذ يستطيع أن يصل إلىٰ ما يصبو إليه بأقصر الطرق، ويحقق ما تطمح إليه نفسه بأفضل النتائج.

كما أن الاستدراج فن يحيي في المخاطب ألوانًا من التدبر، وأصنافًا من التأمل، وسُبُلًا من التفكّر؛ لأنه لا يزال يثير في عقله الدوافع والأسباب التي تقوده ـ إن فكر بإنصاف وعدل ـ إلىٰ الإذعان والانقياد، واليقين والتصديق، والتسليم والرضا، والاقتناع بعد ظهور الأدلة والبراهين التي يمكنها تحويله من مُعَارِض إلىٰ مؤيِّد، ومن معانِد إلىٰ مدافِع إذا تمكَّن اليقين في قلبه، وملأ عقله وفؤاده، فإن لم يصل في النهاية إلىٰ الاقتناع فليس أقل من أن يتذبذب في رأيه، أو يداخله الشك في معتقده، علَّه يتأمل ويتفكر ويصل إلىٰ التصديق والإذعان.

ودعوة إبراهيم ـــ عليه السلام ـ لأبيه في سورة مريم تمثل نموذجًا تطبيقيًا حوىٰ كثيرًا من وسائل الاستدراج وطرقه، التي اتسمت بدقائق البلاغة، وأسرار البراعة وإحكام الاستدلال؛ تلطفًا بأبيه، واستمالة له، علَّه

يقتنع فيستجيب لدعوته ويقبل نصيحته؛ ليصل به إلىٰ بر الأمان ومستقر الاطمئنان.

وقد كثرت الدراسات التي تناولت قصة إبراهيم ــ عليه السلام ــ بصفة عامة في القرآن الكريم إلا أنني لم أعثر علىٰ دراسة بلاغية عنيت بفن الاستدراج في دعوة إبراهيم ــ عليه السلام ــ لأبيه بصفة خاصة علىٰ النحو الذي جاءت به الدراسة في هذا البحث، وقد عثرت علىٰ بحث نُشر بمجلة اللغة العربية بالزقازيق، العدد الخامس والثلاثين، ٢٠١٥م بعنوان: مصطلح "الاستدراج" المفهوم والأثر دراسة بلاغية، وهذا البحث سلَّط الضوء علىٰ فن الاستدراج ، وساق الآيات التي تضمنت دعوة إبراهيم ــ عليه السلام ــ لأبيه ضمن بعض النماذج التي تمثَّل فيها فن الاستدراج، مظهرًا حسن ترتيبها، وروعة اتساقها، إلا أن هذه الدراسة كانت موجزة، ولم تفصِّل طرق الاستدراج ووسائله في الآيات علىٰ النحو الذي جاءت به الدراسة في هذا البحث، وهذا ما جعلني أتوجه إلىٰ هذه الآيات بالدراسة والتحليل، فكان عنوان البحث: الاستدراج في دعوة إبراهيم ــ عليه السلام ــ لأبيه في سورة مريم؛ للكشف عن وسائل الاستدراج وطرقه التي انتهجها الخليل في دعوة أبيه، وتحليلها تحليلًا بلاغيًا، يكشف دقة نظمها، وإحكام استدلالها.

وهذه الطريقة التي انتهجها الخليل إبراهيم ــ عليه السلام ــ في دعوته لأبيه واستدراجه إلىٰ توحيد الله ينبغي أن يجعلها الداعية إلىٰ الله نصب عينيه، وأن تكون نبراسًا يضيء طريقه، ونورًا يهديه السبيل؛ لأنها طريقة تؤازر الداعي إلىٰ الله، وتخبره أن ليس عليك هداهم، وأن وظيفتك

هي التبليغ فحسب، أما الهداية فأمرها إلىٰ الله، يهدي من يشاء إلىٰ صراطه المستقيم.

وقد دفعني إلى دراسة هذا الموضوع عدة أسباب أهمها:

أولًا: الكشف عن بعض أسرار النظم في الآيات التي حكاها القرآن الكريم علىٰ لسان الخليل إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ في سورة مريم، والطريقة التي سلكها في دعوة أبيه، والنهج الذي انتهجه لإقناعه، وتحويله من الشرك إلىٰ التوحيد، ومن الكفر إلىٰ الإيمان، بأسلوب لطيف رفيق يتخذ منه الدعاة إلىٰ الله الأسوة الحسنة، والقدوة المثلىٰ، والنبراس المضيء في دعوتهم إلىٰ الله.

ثانيًا: تنوع الطرق التي استدرج بها إبراهيم ـ عليه السلام ـ أباه تنوعًا يستدعي تأملها، وتدبرها، والعكوف عليها؛ لإبراز وجوه بلاغتها، وإدراك الأسرار الكامنة وراء إيثارها؛ مما يبرز أهمية بر الوالدين، والتأدب في معاملتهما، ووجوب أن يسلك المرء شتىٰ الطرق للوصول إلىٰ قلبيهما إلا أن يكون السبيل إلىٰ رضاهما هو الشرك بالله، عندها فلا تجب طاعتهما.

ثالثًا: بيان الدور الفعّال الذي يؤديه فن الاستدراج، والكشف عن قيمته وأهميته في إقناع المخاطب، والوصول به إلىٰ حيث تطمئن نفسه، وينشرح صدره، بطريقة التدرج في الحوار شيئًا فشيئًا، حتىٰ يستجيب في سلاسة ويسر، وانقياد وإذعان.

وقد انتظم البحث في مقدمة وتمهيد وخمسة مطالب تقفوها خاتمة وفهارس.

أما المقدمة فقد اشتملت علىٰ أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والخطة التي انتظمها البحث، والمنهج المتبع في الدراسة.

وفي التمهيد جاء الحديث فيه عن ثلاثة أمور:

الأول: مفهوم الاستدراج.

الثاني: قيمة الاستدراج وأثره في تقرير المعنىٰ.

الثالث: علاقة الاستدراج في دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأبيه بسياق السورة.

وجاءت مطالب الدراسة على النحو الآتي:

المطلب الأول: الاستدراج بإثارة غريزة الفكر وإقامة الحجة العقلية.

المطلب الثاني: الاستدراج بالرفق والتواضع وحسن الأدب.

المطلب الثالث: الاستدراج بالتنفير والتثبيط عن طريق الضلال.

المطلب الرابع: الاستدراج بالتحذير من سوء العاقبة.

المطلب الخامس: الاستدراج بترقيق القلب عن طريق الهجر والوداع.

ثم تأتي خاتمة البحث وتحوي أهم النتائج، ثم الفهارس.

والمنهج المتبع في هذه الدراسة هو المنهج الاستقرائي التحليلي الذي يقوم علىٰ استقراء الآيات محل الدراسة وتتبع فن الاستدراج فيها، وبيان طرقه ووسائله التي آثرها النظم القرآني علىٰ لسان إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ في استدراج أبيه إلىٰ توحيد الله، وإيضاح الأسرار البلاغية الكامنة وراء إيثار هذه الفنون كطريق من طرق الاستدراج، وسبيل من سبله، مع الإفادة من نفيس ما كتبه المفسرون في شروحهم.

وقد جاء ترتيب مطالب البحث حسب ترتيب النص القرآني في سورة مريم، وفي كل مطلب من مطالب البحث قمت بتحليل الآيات تحليلًا بلاغيًا، يكشف عن طرق الاستدراج وأساليبه فيها، ويميط اللثام عن

وسائله، ويبرز دقة النظم القرآني في إيثار كل أسلوب من أساليبه، وما تحلىٰ به إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ في دعوته لأبيه من ذكاء وفطنة، ولطف ولين، وصبر ومثابرة؛ فدعوة الخليل لم تكن أمرًا سهلًا؛ نظرًا للاختلاف بين عقيدة الابن وأبيه، إذ الأصل أن يكون الأب ناصحًا والابن منصوحًا، ولما جاءت دعوة إبراهيم علىٰ خلاف هذا الأصل آثر الخليل في دعوته وسائل خاصة وطرقًا مختلفة لاستدراج أبيه، وهذا ما ستتحدث عنه هذه الدراسة ـ إن شاء الله.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل ابتغاء وجهه، وأن يتجاوز عما فيه من سهو أو خطأ، والحمد لله في الأولىٰ والآخرة والصلاة والسلام علىٰ المبعوث رحمة للعالمين.

التمهيد

أولًا: مفهوم الاستدراج

الاستدراج لغة: بمعنىٰ الإدناء، أي: أدناه منه علىٰ التدريج، وفي التنزيل العزيز: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم:٤٤][(١)].

وقيل في المراد باستدراج الله ـ تعالىٰ ـ العبد في هذه الآية: أنه كلما جدد خطيئة جدد له نعمة، وأَنْسَاه الاستغفار، أو أن يأخذه قليلًا قليلًا ولا يباغته[(٢)].

وأما في الاصطلاح فلم تتفق كلمة البلاغيين علىٰ تحديد مفهوم الاستدراج؛ فقد ذكر ابن الأثير أنه استخرج هذا الفن من كتاب الله ـ تعالىٰ ـ وقال: " وهو مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال"[(٣)].

وإطلاق وصف المخادعة علىٰ مصطلح الاستدراج لا يصلح أن يكون علىٰ إطلاقه، فقد يتناسب مع مقام ولا يتناسب مع آخر لذا فقد عرف ابن

---

(١) ينظر لسان العرب لابن منظور(ت:٧١١هـ) - مادة درج- دار صادر- بيروت- الطبعة الثالثة - ١٤١٤ هـ.

(٢) ينظر القاموس المحيط لمجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادىٰ (ت: ٨١٧هـ)، باب الجيم، فصل الدال-تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة-بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي- مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان- الطبعة الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير (ت: ٦٣٧هـ) تحقيق: أحمد الحوفي ٢/ ٢٠٥ ، بدوي طبانة- دار نهضة مصر، الفجالة ـ القاهرة.

الأثير الاستدراج بقوله: "هو التوصل إلىٰ حصول الغرض من المخاطب، والملاطفة له في بلوغ المعنىٰ المقصود من حيث لا يشعر به " (١).

وذهب العلوي إلىٰ الحديث عن الاستدراج بالمعنىٰ الشامل فقال:"وهذا اللقب إنما يطلق علىٰ بعض أساليب الكلام، وهو ما يكون موضوعًا لتقريب المخاطب، والتلطف به، والاحتيال عليه بالإذعان إلىٰ المقصود منه، ومساعدته له بالقول الرقيق، وبديلها الرشيقة، كما يحتال علىٰ خصمه عند الجدال والمناظرة بأنواع الإلزامات، والانتماء إليه بفنون الإفحامات؛ ليكون مسرعا إلىٰ قبول المسألة والعمل عليها"(٢).

وقال التنوخي: "الاستدراج هو استمالة المخاطب بما يؤثره، ويأنس إليه، أو ما يخوفه ويرَغِّبه، قبل أن يفاجئه المخاطب بما يُطلب منه، وهذا باب واسع، وهو أن يقدم المتكلم ما يعلم أنه يُؤثَر في نفس المخاطب من ترغيب وترهيب وإطماع وتزهيد، وأمزجة الناس تختلف في ذلك، فينبغي أن يُستمال كل شخص بما يناسبه"(٣).

(١) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور لابن الأثير الكاتب (ت: ٦٣٧هـ)-١/ ٢٣٥- تحقيق: مصطفىٰ جواد- مطبعة المجمع العلمي- ١٣٧٥هـ.

(٢) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيىٰ بن حمزة العلويّ (ت: ٧٤٥هـ) -٢/ ١٤٨ - المكتبة العصرية – بيروت- الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٣هـ.

(٣) الأقصىٰ القريب في علم البيان للإمام زين الدين أبي عبد الله محمد بن عمرو التنوخي صـ١٠٣ –مطبعة السعادة- الطبعة الأولىٰ ١٣٢٧هـ.

ويمكن القول إن الاستدراج يعد ضمن مجموعة من الأساليب التي يجمعها اللطف في بديلها، والرشاقة في التعبير، والرأفة في الطريق إلىٰ قلب السامع، والدقة في إقناع عقله[1].

وأما الاستدراج عند المفسرين فيقصد به: إرخاء العنان مع الخصم في المجاراة، والتدرج إليها، والدنو منها في خفية فلا يباغت ولا يجاهر[2].

وجاء في تفسير الزمخشري: استدرجه إلىٰ كذا: إذا استنزله إليه درجة فدرجة، حتىٰ يورطه فيه[3].

وقال أبو السعود في تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:٤٤]: " الاستدراجُ: استفعالٌ من درَجَ، إما بمعنىٰ صعِد ثم اتُسِع فيه فاستعمل في كل نقل تدريجي، سواء كان بطريق الصعود أو الهبوط أو الاستقامة، وإما بمعنىٰ مضىٰ مشيًا ضعيفًا، وإما بمعنىٰ طوَىٰ، والأول هو الأنسب بالمعنىٰ المراد الذي هو النقل إلىٰ أعلىٰ درجاتِ

---

(١) ينظر مصطلح "الاستدراج" المفهوم والأثر دراسة بلاغية، تأصيلًا، وتطبيقًا. تأليف د/ محمد بن عبد الرحمن الخراز، صـ٨٢٤، جامعة القصيم ١٤٣٥هـ، ١٤٣٦هـ.بحث مستل من مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق، العدد الخامس والثلاثين، ٢٠١٥م.

(٢) ينظر تفسير البغوي = معالم التنزيل في تفسير القرآن لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٠هـ)-٣/ ٣٠٨- حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش- دار طيبة للنشر والتوزيع- الطبعة الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لأبي الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (ت: ١٠١٤هـ)- ٩/ ٣٦٣٨- دار الفكر، بيروت – لبنان- الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

(٣) الكشاف للزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) -٤/ ٥٩٥ - دار الكتاب العربي- بيروت- الطبعة الثالثة - ١٤٠٧هـ.

المهالك؛ ليبلغ أقصىٰ مراتبِ العقوبة والعذاب، ثم استعير لطلب كل نقل تدريجيّ من حال إلىٰ حال من الأحوال الملائمة للمنتقل الموافقة لهواه بحيث يزعُم أن ذلك ترقّ في مراقي منافعِه مع أنه في الحقيقة ترد في مهاوي مصارعه"[١].

وقد نظر بعض العلماء إلىٰ مصطلح الاستدراج باعتبار استعماله في الشر فحسب، وهذه النظرة لهذا المصطلح فيها إجحاف بحقه، وتضييق لما وسعته اللغة، وإغفال لجانب معتبر في الاستعمال، وهو أن مصطلح الاستدراج كما يستعمل في النزول بالمخاطب إلىٰ الشر فإنه يستعمل أيضًا في الارتقاء به إلىٰ جانب الخير، وهذا المعنىٰ الثاني هو الذي بُنيت عليه الدراسة في دعوة إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ لأبيه، ومحاولة استدراجه وإقناعه بتوحيد الله وترك عبادة الأصنام، بشتىٰ وسائل الاستدراج، ومختلف طرق الإقناع، في أسلوب هو القمة في معاملة الابن لأبيه.

بل إن مفهوم الاستدراج الذي سبق ذكره لأبي السعود في تفسيره لم يقتصر علىٰ استعمال الاستدراج في جانبي الخير أو الشر فحسب، ولكن تطرق لمعنىٰ ثالث هو الذهاب والمضي باستقامة إلىٰ الشيء، ولعل من حصر استعمال الاستدراج في الهبوط بالمخاطب إلىٰ جانب الشر إنما قصد بعض صور استعمالات الاستدراج اللغوية وغض الطرف عن البعض الآخر[٢].

❁❁❁❁❁

(١) تفسير أبي السعود لأبي السعود العمادي (ت: ٩٨٢هـ)- ٣/ ٢٩٧ - دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢)) ينظر مصطلح "الاستدراج" المفهوم والأثر دراسة بلاغية، صـ٨٤٥ .

ثانيًا: قيمة الاستدراج وأثره في تقرير المعنى

إن طبيعة فن الاستدراج هي التي جعلت منه وسيلة خصبة؛ لإيثاره في فن الحجاج، وملاطفة الخصم، واستدراجه؛ علَّه يكتشف الصواب إن كان غافلًا أو يعود إلىٰ رشده إن كان مخطئًا؛ لذا فإن فن الاستدراج "مما تتراكض فيه خيول المناظرين"(1).

ومجيء الاستدراج في القرآن الكريم، والحديث الشريف بالكثرة الملحوظة يدل علىٰ أثر الاستدراج وأهميته؛ إذ يأتي في القرآن يمهِّد به طريق الحق، ويستدني به إصغاء المخاطب، كما يقطع به الطريق علىٰ المعاند والمكابر حتىٰ يرضخ للحق؛ فلا يكون أمامه إلا أن يذعن له، ويتبعه، ويرضخ له، أو تقوم عليه الحجة فيقف أمام الاستدراج مكتوف الأيدي، لا يستطيع الرد من وضوح الحجة التي لا مجال معها للشك(2).

وعن بلاغته يقول صاحب المثل السائر: " وإذا حقق النظر فيه علم أن مدار البلاغة كلها عليه؛ لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة، والمعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها"(3).

وفن الاستدراج فيه " من الغرائب والدقائق ما يوثق السامع ويطربه؛ لأن مبني صناعة التأليف عليه، ومنشأها منه" (4).

---

(1) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي (ت: ١٢٧٠هـ) ١/ ٣٩٤ - تحقيق: علي عبد الباري عطية- دار الكتب العلمية - بيروت- الطبعة الأولىٰ، ١٤١٥ هـ.

(2) ينظر مصطلح "الاستدراج" المفهوم والأثر دراسة بلاغية صـ٨٤٨.

(3) المثل السائر ٢/ ٢٠٥ .

(4) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور لابن الأثير ١/ ٢٣٥ .

لذا فإن فن الاستدراج يحتاج إلىٰ ذكاء ومهارة المتكلم، وحذقه ودقته في أسلوب خطابه؛ كي يصل إلىٰ مراده من مخاطبه بألطف سبيل؛ وذلك لما في هذا الفن من الملاطفة واللين في النصح، بأسلوب معتدل منصف غير مغالٍ فيه، وفيه من استدراج الخصم والترفق معه، واستدرار عطفه ما لا يخفىٰ.

وتختلف الطرق والوسائل التي يسلكها المتكلم لاستدراج المخاطب؛ فقد يستدرجه بحسن الابتداء، أو حسن التخلص، أو حسن التقسيم، أو حسن التعليل، وقد يسلك به مسلك التعريض، أو الكناية أو التشبيه أو الاستعارة، وقد يستدرجه بأسلوب الاستفهام أو النهي أو القَسَم، وغير ذلك من الأساليب التي يستجلبها المتكلم؛ لتأخذ بُلبِّ المخاطب وعقله، وتأسر جوارحه وفؤاده؛ إذ يتخذ فيها من الإنصاف منهجًا، ومن العدل والحق طريقًا.

وعليه فإنه يمكن القول بأن قيمة الاستدراج تنبعث من كونه منظومة متكاملة، وتركيبة مكثفة من الاختيارات اللفظية والصيغ البنائية التي تتحد في النص، وتتواءم فيه؛ لتسري بالمعنىٰ في لطف إلىٰ عقل المخاطب، وتأخذ بقلبه وعاطفته بهدف استدراجه؛ ليستجيب ويذعن إن كان معارضا، أو يُقبل ويتحفز إن كان موافقا، أو يعود إلىٰ صوابه إن كان قد أخطأ لعارض طرأ، أو أزمة نزلت به[1].

❁❁❁❁❁

(١) ينظر مصطلح الاستدراج صـ٨٥٧، ٨٥٨.

ثالثًا: علاقة الاستدراج في دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأبيه بسياق السورة

قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴿٤٧﴾ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ﴿٤٨﴾ ﴾[مريم ٤١ : ٥٠]

إن المقصد من سورة مريم هو إثبات وحدانية الله، والقدرة على البعث، والتنزّه عن الولد، وشمول رحمته، واتصافه بجميع صفات الكمال(١).

والغرض الذي جاءت سورة مريم ترسخه في النفوس هو الغرض الذي قامت عليه دعوة إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ لأبيه، فالدعوة إلى توحيد الله، ونبذ عبادة الأصنام هو الأساس في دعوته لأبيه، ومحاولة استدراجه إياه بكل سبيل من شأنه أن يقنعه بهذا المقصد الأعظم للسورة الكريمة، وهذا الذي دعا إليه الخليل هو ما بُعِث لأجله الرسل جميعًا، وقامت عليه دعوتهم.

ومن جانب آخر فإن الموضوعات التي بُنيت على سورة مريم تتناسب تناسبًا جليًا، وتتصل اتصالًا وثيقًا بدعوة إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ لأبيه، ومن ثَمَّ ناسب ذكر قصة استدراجه لأبيه في دعوته مع قصص السورة الكريمة.

---

(١)) ينظر مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي (ت: ٨٨٥هـ)- ٢/ ٢٦٠- مكتبة المعارف – الرياض- الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.

وبيان ذلك أنه لما تضمنت سورة مريم بعض العجائب والخوارق كبشارة زكريا بيحيىٰ بعد شيخوخته، وكان إبراهيم ـ عليه السلام ـ مِثْل زكريا في هبة الولد علىٰ كبر سِنِّه وعُقم زوجه، ناسب ذلك ذكر قصته، كما تضمنت سورة مريم ميلاد عيسىٰ ـ عليه السلام ـ بغير أب، ونفي الشريك بقيد كونه ولدًا، ناسب ذلك أن يتبع قصته بقصة استدراج إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأبيه، والتي تنفي الشريك بقيد عدم تقليد الأبناء لآبائهم، وإظهار ما لاقاه من جفاء وقسوة وغلظة الأبوة[1].

وقد ذَكرت سورة مريم قصصًا لما حدث مع بعض الرسل من العجائب بقصد العظة والعبرة، وقد تناسب ذلك مع ما ورد في سورة الكهف من بعض القصص العجيب، وكان تقريرًا لما ورد في ختام سورة الكهف من عدم نفاد كلمات الله، وانتهت قصص هؤلاء الرسل مع أقوامهم بانحراف أتباعهم عن سننهم، ومجازاتهم بما يستحقون علىٰ انحرافهم[2].

لأجل ما سبق فإن الموضوعات التي عرضت لها سورة مريم تناسبت مع موضوعات سورة الكهف ـ من جانب ـ، كما تناسبت قصة إبراهيم

(١)) ينظر البرهان في تناسب سور القرآن للغرناطي (ت: ٧٠٨هـ)، صـ٢٥٢ - تحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م. ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور لأبي بكر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) - ١٢/ ٢٠٣- دار الكتاب الإسلامي، القاهرة. وتناسق السور في تناسب السور للحافظ جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١ه) صـ١٠١، تحقيق/ عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٦ه، ١٩٨٦م.

(٢)) ينظر النظم الفني في القرآن لعبد المتعال الصعيدي صـ١٩٠، مكتبة الآداب، القاهرة، المطبعة النموذجية، ١٤٣٩ه.

ـــ عليه السلام ـــ مع المقصد الذي دعت إليه سورة مريم ـــ من جانب آخر ـ وتناسبت قصته أيضًا مع القصص التي وردت في سورة مريم ـ من جانب ثالث.

ولعله يمكن القول إن ذكر قصة إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ هنا من قبيل تهيئة قلب النبي ـــ ﷺ ـ حتىٰ لا يُصاب بالحزن أو الانكسار حين يفاجأ بما صنعه قومه الذين وسموه بالصادق الأمين، وحتىٰ يكون لديه الاستعداد النفسي لما يتلقاه من إيذاء وتعنت من قبل من هم أقرب الناس إليه؛ وذلك لأن قصة إبراهيم تعتبر مثالًا حيًا للصدام بين الإيمان والكفر، وأن هذا الصدام قد ينشأ بين أشد الناس قرابة كالابن وأبيه، وعليه فلا ينبغي أن يحزن النبي ـــ ﷺ ـــ لما حدث من قومه معه، وما سيحدث من اختلاف وتفرق.

والبيان القرآني يريد من النبي ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ أن يقصّ علىٰ المؤمنين قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـــ مع أبيه[1] ؛ لأن الذكر في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ ﴾ [مريم : ٤١] مُنَزَّل منزلة القصص أو الحكاية؛ إذ كانت قصته مضرب المثل في كيفية تعامل الابن البار مع أبيه، وبيان الأسلوب والطريقة التي ينبغي أن ينتهجها الأبناء تجاه الآباء، وبخاصة إن اختلف الأبناء مع آبائهم وكان الحق في جانب الأبناء، ولما كانت الفطرة أن ينشأ الأبناء علىٰ طريقة آبائهم فإن مجيء الأبناء بنهج يخالف الآباء حري

(١)) وقد ذكر بعض العلماء أن آزر هو أبو إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ وقال بعضهم إنه عمه، ولكل من الفريقين أدلته، وهذه القضية استفاض العلماء في بحثها، وليست مجالًا للبحث هنا؛ لأن هذه الدراسة عنيت بفن الاستدراج واتخذت من قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـــ نموذجًا تطبيقيًا له.

بأن يسلك الأبناء طريقة اللين واللطف والرفق؛ إذ اتباع الابن لأبيه أمر طبيعي، أما اتباع الأب لابنه فأمر يشق علىٰ النفس.

لذا كانت قصة إبراهيم مع أبيه مثلًا يُحتذىٰ به، وقدوة للدعاة إلىٰ الله في بيان كيفية طريقة الدعوة إلىٰ الله، وسلوك شتىٰ طرق الإقناع والبرهان، وعدم اليأس أو الاستسلام لأول عقبة تعترض طريق الداعية؛ لأن طريق الدعوة طريق بُذِلت فيه الأرواح، وضُحِّي في سبيله بكل غالٍ نفيسٍ.

وقد بيَّن الذكر الحكيم السبب والعلة من إخبار النبي ـــ ﷺ ـــ الناس قصة إبراهيم في قوله: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم: ٤١]، فهي من قبيل الاستئناف البياني المسوق لتعليل موجب الأمر؛ فإن وصف إبراهيم ـ عليه السلام ـــ بكونه صديقًا نبيًا من دواعي ذكر النبي ـــ صلىٰ الله عليه وسلم ـ قصته حين أمره الله بقوله: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ ﴾ [مريم: ٤١] (١).

❁❁❁❁❁

(١) ينظر تفسير أبي السعود ٥/ ٢٢٦ .

المطلب الأول

الاستدراج بإثارة غريزة الفكر وإقامة الحجة العقلية

كانت دعوة إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ لأبيه أمرًا غير هيّن، يحتاج إلىٰ فطنة وذكاء، ولطف ولين، ورحمة وشفقة، وصبر وتأنٍ، ومثابرة وعدم يأس؛ ولذا ناسب ذلك أن يسلك إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ مسالك شتىٰ، يحاول من خلالها أن يستدرج أباه إلىٰ التوحيد بأسلوب رقيق لطيف، وطريقة هادئة لينة، ونهج سوي تقتضيه الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة.

والمتأمل للنظم القرآني يجده يحاول استدراجه أولًا بإثارة غريزة الفكر لديه، وإقامة الحجة العقلية عليه؛ علَّه يتدبر حاله، ويتفكر في شأن المعبود الذي يتقرب إليه، ولما كانت العقيدة التي ترسخت في قلب الابن ـــ إبراهيم-عليه السلام ـــ تخالف عقيدة الأب، وكانت النصيحة من الابن لأبيه، وهذا مما تأباه النفس البشرية؛ إذ الطبيعة تقتضي أن يكون النصح من الأب لابنه؛ باعتبار خبرته في الحياة، ومروره بالتجارب التي تجعله يُقَدِّم خلاصتها إرشادًا لأبنائه؛ لأجل هذا كان أول أساليب الاستدراج التي عمد إليها الخليل ـــ عليه السلام ـــ في خطاب أبيه لإثارة غريزته الفكرية هو أسلوب النداء قال تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٤٢] .

وقد افتتح إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ خطابه لأبيه بالنداء في قوله: (يا أبتِ) مع أن الحضرة مغنية عن النداء؛ قصدًا لتنبيهه إلىٰ ما يخبره به، وإحضارًا

لسمعه، وإيقاظًا لذهنه، حتىٰ يكون علىٰ أتم استعداد لما سيُلقىٰ عليه[١]؛ إذ النداء يسترعي انتباه الغافل، ويستدعي إيقاظ الشارد، فيجمع لُبَّه وعقله، ويؤهل المخاطب لما سيأتي بعده من الكلام؛ فإن الأمر جلل، والخطب عظيم؛ لأنه يتعلق بالعبادة التي ما خلق الله البشر إلا لأجلها؛ ولذا ناسب ذلك استعمال (يا) في النداء بقصد استمالته إليه؛ تنبيهًا علىٰ أنه رفيع المقام، عالي الشأن، له من المنزلة عند المتكلم أعلاها، ومن المكانة وعِظَم الشأن أفضلها وأولاها، كما أن استعمال (يا) خاصة بما فيها من مد الصوت عند النطق بها يتلاءم مع حال المخاطب؛ إذ النصيحة هنا خالفت ما اقتضته طبيعتها في مجيئها موجهة من الابن لأبيه، فجاءت علىٰ العكس من ذلك، وهذا يتطلب مزيدًا من التنبيه؛ لأن احتمال استجابة المخاطب واستعداده لقبول النصيحة أمر ضعيف.

والأصل في قوله: (يا أبت) أن يقول: يا أبي، إلا أنهم يحذفون ياء المتكلم ويعوضون عنها التاء؛ لملحظ دقيق، وكأنه يريد أن يثبت أنه وإن كان أبًا إلا أن فيه حنان الأبوين: (الأب والأم)، فجاء بالتاء مبالغة في الوصف بالحنان والرحمة؛ لأنها لا تقال إلا في الحنانية المطلقة[٢].

وقد أحسن إبراهيم ــ عليه السلام ــ في استدراجه لأبيه بهذا النداء؛ لما للنداء من القدرة علىٰ استدعاء عاطفة الأبوة الجياشة، وحنان الوالد الفياض تجاه ولده، تلك الفطرة التي فُطِر الناس عليها، والتي تجعل الأب يضحي بنفسه من أجل سعادة أبنائه، ولا أغالي إن قلت: إن تلك العاطفة هي التي

---

(١) ينظر التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣هـ)- ١٦/ ١١٣ -الدار التونسية للنشر – تونس- ١٩٨٤ هـ.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير ١٦/ ١١٣ .

تجعل من الأبناء نقطة ضعف لدىٰ الآباء؛ لذا فالقرآن الكريم لم يأمر الآباء بالإحسان إلىٰ الأبناء وإنما أمر بالعكس، مما يشير إلىٰ أن إحسان الآباء إلىٰ الأبناء أمر فطري مجبول عليه.

وحين آثر النظم القرآني علىٰ لسان إبراهيم ـــ عليه السلام ـ أسلوب النداء لاستدراج أبيه إلىٰ توحيد الله، وترك عبادة الأصنام ناسب ذلك أن يعقبه أسلوب الاستفهام في قوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ ﴾ ؛ إذ النداء ـــ بما يتضمنه من لفت الانتباه ـــ كثيرًا ما يأتي بعده الأمر أو النهي أو الاستفهام؛ ويُعَدُّ الاستفهام الطريق الأمثل في الكشف عما يدور بخلد المتلقي، وما يخالج عقله من أفكار، فمن أعياه الاستبهام فلا سبيل لإزالته أفضل من الاستفهام[1].

وقد ذكر الزمخشري أن الاستفهام يفيد التنبيه والإيقاظ، وذلك لأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ طلب من أبيه بيان السبب في عبادة الأصنام؛ منبهًا إياه علىٰ خطئه، موقظًا لإفراطه وتماديه في الغفلة؛ لأن العبادة هي غاية التعظيم، فلا تحق إلا لمن له غاية الإنعام، وهو الخالق الرزاق، المحيي المميت، المثيب المعاقب، الذي منه أصول النعم وفروعها، فإذا وجهت إلىٰ غيره- تعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا- لم يكن إلا كفرًا وجحودًا، وظلمًا وعتوًا، وخروجًا عن الطريق القويم إلىٰ الضلال المبين، فكيف يكون الحال بمن وجَّه عبادته إلىٰ جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عن نفسه شيئًا؟! فضلًا

(١) ينظر أساس البلاغة للزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)-٢/ ٣٨ - تحقيق: محمد باسل عيون السود- دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

عن أن يغني عن معبوده شيئًا بأن يستدفعه بلاء فيدفعه، أو يطلب حاجة فيعطيه إياها(١).

وقد أشعر الاستفهام بمدىٰ اللطف واللين والرفق، والأدب الجميل، وفي إيثار الاستفهام بـ(ما)، وحذف ألفها بعد دخول اللام الجارة عليها وجوبًا(٢)؛ مسارعة إلىٰ بيان عِظَم الخطأ الذي وقع فيه، ومبادرة إلىٰ تقديم النصيحة؛ بالدلالة علىٰ عدم وجود النفع من وراء هذه العبادة، وأن المعبود لا بد أن يكون منزهًا عن كل نقص، بعيدًا عن كل عيب، فكان الحذف تنبيهًا علىٰ عُقم فعله، وبتر النفع العائد من ورائه (٣).

بالإضافة إلىٰ أن حذف الألف من (ما) الاستفهامية ينبئ بشدة حرص إبراهيم ـــ عليه السلام ـ علىٰ إبعاد أبيه عن هذا الفعل الشنيع، وشدة الرغبة في نصحه بالتأمل في هذا الخطب الجلل، والأمر الذي لا يقبله صاحب عقل سليم؛ ولذا حذفت الألف من (ما) الاستفهامية مبالغة في إبراز بغض إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ ومدىٰ كراهيته لمعتقد أبيه، وضيق صدره به.

كما جاءت الكناية سبيلًا من سبل استدراج إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ في دعوة أبيه في قوله: ﴿ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ فهو كناية عن موصوف، وهو الأصنام والأوثان التي يعبدها أبو إبراهيم

(١) ينظر الكشاف للزمخشري ٣/ ١٩ .

(٢)) ينظر مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. لابن هشام (ت: ٧٦١هـ) ١/ ٣٩٣ ـــ تحقيق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، دار الفكر – دمشق، الطبعة السادسة، ١٩٨٥م.

(٣) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٢/ ٤٠٢ .

ـ عليه السلام ـ، وهذه الكناية تحمل في طياتها تعريضًا بهذه الآلهة، وتحقيرًا لشأنها، وغض الطرف عنها وامتهانها؛ إذ المعبود لا بد أن يكون بعيدًا عن كل نقص، خاليًا من كل عيب يتعارض ومقام الألوهية، منزهًا عن كل ما ينافي صفات المعبود الحق، وقد استدرج إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ أباه إلىٰ أمر هو من الأمور التي لا يختلف عليها اثنان، وهو كيف يَصلُح أن يكون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني شيئًا عن أحد ـــ فضلًا عن أنه لا يغني عن نفسه شيئًا ـــ معبودًا؟! كيف يستجيب الدعاء ؟! أو كيف يرىٰ أفعال العباد ويحاسبهم وقد فقد البصر؟! أو كيف يملك دفاعًا عن المظلوم وهو لا يملك دفاعًا عن نفسه؟!

فالكناية بما تميزت به من إعطاء الحقيقة مشفوعة بدليلها، والقضية وفي طيها برهانها تومئ من طرف خفي إلىٰ فظاعة هذا الأمر الذي وقع فيه والد إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ وحمق هذا الفعل الذي يدل علىٰ أنه لم يفكِّر في المعبود الذي يلجأ إليه، والإله الذي يستعين به في ضرائه، والرب الذي يتولىٰ أمره في سرائه.

كما أن الكناية جاءت علىٰ سبيل التلطف بأبيه، والرفق في معاملته، وتنبيهه إلىٰ الخطأ الذي وقع فيه، وإيقاظ بصيرته إلىٰ الطريق الحق المستقيم، ودعوته بالحكمة والموعظة الحسنة؛ إذ الصواب هنا في جانب الطرف الأصغر سنًا ـــ وهو الابن ـــ والخطأ في جانب الطرف الأكبر سنًا ـــ وهو الأب ـــ ومعلوم أن هذا الأمر شاق علىٰ النفس، فكان طريق الكناية هو الأنسب للمقام، والأبلغ من التصريح؛ لقيامها علىٰ التلويح؛ إظهارًا لكمال الحرص عليه، وشدة الرأفة به، إذ لو خاطب إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ أباه

بطريق التصريح لكان في ذلك لون من الغلظة والشدة من قِبَل الابن تجاه أبيه، ولربما أدىٰ ذلك إلىٰ العناد والكبر والتعصب للرأي.

وقد آثر النظم القرآني علىٰ لسان إبراهيم ـ عليه السلام ـ صيغة المضارع في قوله:﴿ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾﴾؛ وذلك لاستدراجه ـ من جانب ـ بإثارة غريزته الفكرية؛ إذ الألوهية تقتضي استمرار صفة السمع والبصر والدفاع عن المعبود وقضاء حوائجه؛ لأن انتفاءها يقدح في المعبود، وعدم وجودها يحوج العقل إلىٰ التأمل، واستدراجه ـ من جانب آخر ـ بإقامة الحجة العقلية؛ لأن الإنسان الذي يسمع ويبصر يترفَّع عن عبادة من هو مثله في صفاته، ويأنف أن يرضخ لمن يدانيه في مميزاته، فكيف يعبد من تنافت صفاته مع صفات الإله الحق، حين اتصف بالضعف والفقر والحاجة إلىٰ الغير؟ بل إن الأمر أبعد من ذلك، فقد انتفت صفاته مع صفات الإنسانية حين فَقَد العقل، وعن الحيوانية حين فَقَد الحواس، وكان الأحرىٰ به أن يتدبر في شأنه، وأن يتخذ العبرة في حاجته إلىٰ الغير وفقد حاستي السمع والبصر، ويعلم أنه من لا يستطيع أن ينفع نفسه فمن باب أولىٰ لن يستطيع أن ينفع غيره [1].

❁❁❁❁❁

(١) ينظر تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن لمحمد الأمين بن عبد الله الأرمي الشافعي- ١٧/ ١٤٨-إشراف ومراجعة: د/ هاشم محمد علي بن حسين مهدي- دار طوق النجاة، بيروت – لبنان – الطبعة الأولىٰ، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

المطلب الثاني

الاستدراج بالرفق والتواضع وحسن الأدب

لما ساق البيان القرآني في الآية السابقة استدراج إبراهيم ـ عليه السلام ـ في دعوته لأبيه بإثارة غريزة الفكر لديه، ومحاولة إقامة الحجة العقلية عليه، بأسلوب رقيق، وسؤال مخلص رفيق، من شأنه أن يصل بالمخاطب إلىٰ مقام الحيرة وزعزعة الثوابت والحقائق ـ وذلك أضعف الاحتمالات ـ ما كان من إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلا أن يواصل السير في دعوته، وأن يرتقي درجة أخرىٰ في طريق الدعوة إلىٰ الله، وأن ينتهج نهجًا آخر للإقناع، وسبيلًا آخر من سبل الاستدراج، حتىٰ يُرغِّب أباه في اتباعه، والاستجابة إلىٰ دعوته، فدعاه إلىٰ التوحيد برفق، وحديث متواضع بحق، وحسن أدب وحب بصدق، قال تعالىٰ حكاية عنه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ [مريم : ٤٣].

والمقام هنا بحاجة إلىٰ الإطناب؛ إذ لم يحْكِ القرآن أن والد إبراهيم رد علىٰ سؤاله إياه عن سبب عبادته لمعبوده، وليس من السهل أن يُغيِّر إبراهيم ـ عليه السلام ـ معتقد آبائه عند أبيه؛ فتلك عقيدة راسخة، وليس بالأمر الهين أن يخالف الأبناء عقيدة الآباء حتىٰ ولو كانت باطلة، فالأمر يحتاج إلىٰ أكثر من إثارة غريزة الفكر، وإقامة الحجة العقلية.

لذا حاول الخليل أن يستدرج أباه بطريقة أخرىٰ، فبيَّن له أن لديه من العلم الرباني الذي منحه الله إياه ما ليس عنده؛ حتىٰ يغريه باتباعه، وترك ما هو عليه من الشرك؛ لذا ناسب ذلك أن يترفق ويلين الخليل ـ عليه السلام ـ في خطابه أكثر، وأن يرتقي إلىٰ مقام آخر، مع أدب جميل وتواضع جَمّ، فأخذ

يكرر إبراهيم نداءه لأبيه بقوله: (يا أبتِ) بنفس اللفظ السابق؛ تأكيدًا لإحضار ذهنه، وحثًا علىٰ قبول نصحه، ورغبة في استمالته إليه، وإثارة عاطفة الأبوة التي كثيرًا ما تجعل الآباء ينزلون علىٰ رغبات الأبناء، ولا شك أن تكرار هذا النداء من إبراهيم ـــ عليه السلام ـ لأبيه استدراج له بالرفق، واللين، وحسن الحديث، وخفض الجناح؛ إبرازًا لشدة حبِّه لأبيه، وحرصه علىٰ قبول نصيحته، وهدايته إلىٰ الطريق الحق.

وقد آثر البيان القرآني أسلوب التوكيد كوسيلة من وسائل الاستدراج علىٰ لسان إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ في قوله: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي﴾، وإيثار طريق التوكيد هنا ناسب المقام؛ لأن الخبر الذي تضمن خطاب إبراهيم يشوبه شيء من الغرابة بالنسبة لمعتقد الأب؛ إذ كيف يكون الابن علىٰ علم بشيء أكثر من أبيه؟ إن طبيعة الأمر تقتضي أن يسبق الأب ابنه في العلم؛ بحكم السن وكثرة التجارب والخبرات، بالإضافة إلىٰ أن أباه كان يرىٰ نفسه علىٰ علم عظيم؛ لمكانته بين قومه، في الوقت الذي قصد إبراهيم بالعلم الوحي والنبوة، لذا كان التعقيب بالاتباع بعد إخباره بمجيء العلم برهانًا علىٰ أن اتباع العالم أمر جُبِل عليه أصحاب العقول، وتعارف عليه أرباب الفطرة السوية؛ لذا اقتضىٰ المقام هنا مجيء التوكيد بـ(إن، واسمية الجملة، وقد)؛ لما عليه حال المخاطب من الإنكار؛ ليهيئ النفس للقبول، ويزيل عن الأمر غرابته.

ومن جانب آخر فإن الداعي إلىٰ توكيد الكلام هو حال المتكلم ـــ إبراهيم عليه السلام ـ حيث رَغِبَ في تقوية مضمون الكلام، وتقريره في نفس

المخاطب ـ أبيه ـ فجاء بالكلام مؤكدًا ومقررًا؛ ترغيبًا في قبول النصيحة، وحثًا علىٰ الاستجابة إلىٰ الحق.

والذي جاءه كما ذكر الألوسي " قيل: العلم بما يجب لله ـ تعالىٰ ـ وما يمتنع في حقه، وما يجوز علىٰ أتم وجه وأكمله، وقيل: العلم بأمور الآخرة وثوابها وعقابها، وقيل: العلم بما يعم ذلك"(١).

ويتجلىٰ الإقناع في خطاب إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأبيه عندما آثر التعبير بالمجيء في جانبه فقال: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي﴾، بينما عبر بالإتيان في جانب أبيه بقوله: (ما لم يأتِك)؛ لأن المجيء أعم من الإتيان لما يكتنف الإتيان من اليسر والسهولة، كما أن المجيء باعتبار الحصول أما الإتيان فاعتباره القصد وإن لم يصحبه الحصول(٢).

ومن مظاهر لطف إبراهيم ـ عليه السلام ـ في استدراجه لأبيه إيثاره التعبير بـ(مِن) التي أفادت التبعيض في قوله: (إني قد جاءني من العلم)، فإبراهيم لم يثبت لأبيه الجهل المفرط، ولم يصف نفسه بكمال العلم وغزارته، بل أخبر أباه أن معه طائفة من العلم، وشيئًا منه لم يبلغه(٣).

ثم إن هذا التعبير فيه من كمال أدب النبوة ما فيه، ومن وتواضع الخليل في خطابه ما اقتضته أخلاق الأنبياء؛ لأنه لم يُثبت لنفسه الفضل في حصول العلم، بل أثبته لله، وأنه من نعم الله التي حباها الله إياه، وليس له أدنىٰ فضل

---

(١) روح المعاني للألوسي ٨/ ٤١٥.

(٢)) ينظر المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني(ت: ٥٠٢هـ) صـ٢١٢- تحقيق: صفوان عدنان الداودي- دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت - الطبعة الأولىٰ- ١٤١٢ هـ.

(٣) ينظر الكشاف ٢/ ١٩ .

في حصول هذا العلم؛ حتىٰ لا يترك لأدنىٰ ذرة من كِبْرٍ أن تتسرب إلىٰ أبيه تجاهه، وهذا من كمال تواضعه وخُلُقه الرفيع.

إن استدراج إبراهيم لأبيه بالرفق والتواضع وخفض الجناح يحمل في طياته معاني الترغيب والتحفيز، والإغراء والإلهاب، واستثارة دوافع التطلع إلىٰ معرفة ما هو جديد، كما يحمل معاني الحب والحرص والخوف علىٰ المحبوب، ويؤيد هذا مجيء الفاء في قوله: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ﴾ الذي يؤذن بشدة حرص إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ علىٰ استجابة والده، ومدىٰ رغبته في قبول نصيحته، في محاولة تجعله يسلك شتىٰ الطرق في دعوته، وكأنه يفصح عما يجول بصدره، وما يجيش في فؤاده من خلال فاء الفصيحة.

ويؤيد هذا إيثار صيغة الأمر من الاتباع الذي قصد منها النصح والإرشاد، واستعمالها دون صيغة الاستجابة ونحوها يوحي بشدة حرص خليل الله علىٰ أبيه، وخوفه عليه من الضلال والتيه؛ لأن الاتّباع يقتضي اقتفاء أثره والسير وراءه خطوة بخطوة [(١)]؛ خشية أن تذل قدماه.

وإذا كانت وظيفة الرسل هي الدعوة إلىٰ الله والتبليغ عنه، فإن المراد بالهداية هنا هي هداية الدلالة والإرشاد وليس هداية التوفيق؛ لأن مرد هداية التوفيق إلىٰ الله ـــ عزَّ وجلَّ ـــ يهدي من يشاء إلىٰ صراطه المستقيم، وإيثار لفظ الهداية هنا يشعر باللطف والمحبة، والرفق واللين، وشدة الحرص والعناية التي صاحبت إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ في دعوته لأبيه.

وفي معرض بيان العلة من الأمر بالاتباع لا يزال إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ يسعىٰ سعيًا حثيثًا لاستدراج أبيه، وقد سلك البيان القرآني هنا مسلك التصوير حين جاء بالاستعارة التصريحية في قوله: (فاتبعني أهدك صراطًا سويًا) حيث شبه الاعتقاد الصحيح والطريق الموصل إلىٰ النجاة بالصراط

(١)) ينظر لسان العرب ـــ مادة تبع .

المستقيم، فقد صورت الاستعارة مدىٰ حرص الخليل ـــ عليه السلام ـــ علىٰ هداية أبيه، وشدة رغبته في الاستجابة لنصحه، وانفطار فؤاده لأجل هدايته، وظهر هذا من خلال أسلوب تحلَّىٰ فيه الابن بالصبر والحلم، والأدب الجميل، واللطف في الخطاب، ولين القول، وخفض الجناح.

ويسعىٰ إبراهيم ـ عليه السلام ـــ من خلال الاستدراج بطريق التصوير الاستعاري إلىٰ إغراء أبيه، وإلهاب مشاعر الرغبة في العلم، وغريزة بحث الإنسان وحبه للمعرفة، وشغفه بكل طريق يجلب له المنفعة، ويدفع عنه الضرر؛ ولذا ناسب ذلك تنكير (صراطًا) الذي أفاد التعظيم والتفخيم، ووصفه بـ(السَّوي) دون (المستقيم)؛ لأن الاستواء هو تماثل أبعاض الشيء، كأن بعضه من بعض، وهو مشتق من السيّ وهو المِثْل، ونقيضه: التفاوت الذي يكون فيه بعض الشيء طويلًا والآخر قصيرًا أو بعضه تامًا والآخر ناقصًا، فالسوي يقال فيما يصان عن الإفراط والتفريط ، أما الاستقامة: فهي الاستمرار علىٰ نهج وسنن واحد، ونقيضها: الاعوجاج[1].

هكذا تفانىٰ الخليل في نصح أبيه، ودعوته إلىٰ ما فيه صلاح دينه ودنياه، وإبراهيم ـــ عليه السلام ـــ بهذا يُمَثِّل للدعاة القدوة الحسنة والنموذج الأمثل الذي يجب أن يكون عليه الداعي إلىٰ الله، وما ينبغي أن يتحلىٰ به من صفات من أجل تبليغ دين الله.

❁❁❁❁❁

(١)) ينظر الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ)، صـ١٥٦، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، والمفردات في غريب القرآن صـ٤٤٠ .

المطلب الثالث

الاستدراج بالتنفير والتثبيط عن طريق الضلال

ولا يزال الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ يستدرج أباه إلىٰ توحيد الله، وترك عبادة الأصنام، وهو في دعوته له يبحث عن كل وسيلة من شأنها أن تُؤَثِّر في أبيه، وكل سبيل يمكن من خلاله تغيير معتقده، كل هذا بأسلوب هو القمة في معاملة الابن لأبيه، قد بلغ الذروة في البر بالأب، وأربىٰ علىٰ النهاية في تقديم النصح والإرشاد، وزاد علىٰ الغاية في التفاني والإخلاص، كما بدا ذلك من خلال المطلبين السابقين.

وقد تدرج إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ في حواره مع أبيه، وارتقىٰ منزلة أخرىٰ من منازل الاستدراج، فبعد أن حاول تنبيهه إلىٰ خطأ معتقده، وعدم الفائدة من وراء عبادته للأصنام، نصحه باتباعه؛ إذ قد حباه الله من العلم ما يجعله أحق أن يُتبع، ثم نجده في هذا المطلب يسعىٰ سعيًا دؤوبًا لاستدراج أبيه، وقد سلك به طريقًا آخر؛ حيث قام بتنفيره وتثبيطه عن طريق الضلال، ونهاه عن الغي واتباع الهوىٰ في قوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٤].

وللمرة الثالثة ينادي إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ أباه وهو في حضرته؛ تأكيدًا لإحضار ذهنه، ولفت انتباهه، وآثر نفس اللفظ: (يا أبتِ)؛ لاستمالة قلبه، واستدرار شفقته، وإلهاب دوافع الرحمة في نفسه، وإيقاظ مشاعر الحب في فؤاده، والتكرار هنا سبيل من سبل الاستدراج؛ لما يضفيه علىٰ الكلام من تقرير وتوكيد، وزيادة تنبيه إلىٰ أهمية ما يدل عليه الخطاب؛ ليكون ذلك أبلغ في تقديم النصح والإرشاد، وأقوىٰ تأثيرًا في المتلقي، وإلهابًا لعاطفة

الأبوة لديه، واستثارة لمشاعر الحب والحنان في قلبه، مما يسهم في استجابته له.

وقد بدأ إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ دعوته بالنهي عن عبادة ما لا ينفع ولا يضر، ثم إغراء أبيه باتباعه حين أخبره بأنه قد جاءه من العلم ما لم يأته، ويصل به في هذا المطلب إلىٰ السبب الرئيس في الإضلال وهو الشيطان، فلم يُنفِّره من عبادة الأصنام مباشرة، وإنما نفَّره من عبادة الشيطان فقال: (يا أبت لا تعبد الشيطان)؛ لأن الشيطان هو الآمر بعبادتها، فكأن طاعته في عبادتها عبادة له، وفي هذا من التهويل والتفظيع لشأن هذه المعصية، ومن التثبيط والتنفير من الوقوع فيها أو الثبات عليها ما فيه.

ومراد النظم الكريم: التثبيط والتنفير عن عبادة الشيطان؛ لأن الشيطان هو الذي سوَّل للناس عبادة الأصنام، بحجة أنها عبادة آبائهم، وهم يقتدون بآثارهم، ونظرًا لما استقر في النفوس من بغض الشيطان، والتحذير من اتباعه، فإن يلزم من هذا التنفير من عبادة الأصنام، والتخويف من اتباعها.

وجاء الاستئناف البياني يجيب عما دار بعقل المخاطب؛ إذ بيّن العلة في النهي عن عبادة الشيطان بقوله: (إن الشيطان كان للرحمن عصيًا) وآثر في جملة الاستئناف التوكيد بـ(إن، واسمية الجملة)، والغرض من التأكيد: تعظيم ما تضمنه الخبر، والتنويه علىٰ شدة أهميته، بالإضافة إلىٰ حال المتكلم ـــ خليل الله ـــ حيث رغب في تقوية مضمون الكلام، وتقريره في نفس أبيه، فجاء بالكلام مؤكدًا ومقررًا؛ مبالغة في تنفيره من طاعة الشيطان، وتثبيطه عن اتباعه، وتحذيره من مغبة الوقوع في مصائده.

وقد وضع المظهر في موضع المضمر؛ حيث جاء لفظ (الشيطان) مع إمكان عود الضمير عليه بدون لبس، فلم يقل: (إنه كان للرحمن عصيا) علىٰ الرغم من وجود القرينة التي تدل عليه؛ لزيادة التقرير لأن وقع كلمة

(الشيطان) علىٰ النفس له من الأثر الفعال الذي يعجز عن أدائه الضمير الذي يعود عليه، ففي ذكر اسمه صراحة زيادة في التنفير منه، والتبغيض فيه؛ لأن وضع المظهر موضع الضمير يُظهر إيحاءات الكلمة وعملها؛ بما يبعثه لفظها في النفس من أحاسيس يعجز عنها الضمير الذي يعود عليها، وإذا كان الضمير يمنح العقل إشارة ذهنية إلىٰ ما يعود عليه إلا أن القدر الأعظم من التأثير يظل في صحبة الاسم الظاهر؛ لأنه ينشأ عندما يقرع اللفظ السمع لأول وهلة بجرسه وارتباطاته التي اكتسبها من الأحداث والمواقف والكلمات [١].

وقد دل علىٰ تمكن العصيان وعدم مفارقته للشيطان حين وصفه بصيغة المبالغة: (عصيًا) بعد دخول (كان) عليه، واقتصر البيان القرآني علىٰ ذكر عصيان الشيطان من بين سائر جناياته؛ لأنه ملاكها، أو لأنه نتيجة معاداته لآدم ــ عليه السلام ــ وذريته، فتذكيره أعظم داعٍ لأبيه إلىٰ الاحتراز عن موالاته، وتنفيره عن طاعته[٢].

ثم في إيثار لفظ (الرحمن) استدراج للمخاطب؛ لما حوته هذه اللفظة من الدلالة علىٰ سعة رحمة الله ــ تعالىٰ ــ وبيان أن مَن اتصف بهذه الصفة هو الذي يستحق العبادة والطاعة، ويستحق أن يلجأ إليه الخلق جميعًا رغبة في عفوه وطلبًا لرضاه ومغفرته، كما أن إيثار لفظة الشيطان دلالة علىٰ شدة وقع المعصية التي جاء بها، وعِظم الجرم الذي ارتكبه، مما ترتب عليه الحكم بشقاوته.

❁❁❁❁❁

(١) ينظر خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني أ/ د. محمد محمد أبو موسىٰ صـ١٩٢ – مكتبة وهبة–الطبعة السابعة.

(٢) ينظر تفسير أبي السعود ٥/ ٢٦٧.

المطلب الرابع

الاستدراج بالتحذير من سوء العاقبة

ولا يزال إبراهيم ـــ عليه السلام ـ يستدرج أباه بلطف إلىٰ التوحيد علىٰ نفس منهجه في دعوته إلىٰ الله، فبعد أن حاول في المطلب السابق استدراجه من خلال إثارة عاطفة الأبوة الجياشة، واستدرار عطفه وحنانه وشفقته، وبذل قصارىٰ جهده في نصحه وإرشاده إلىٰ الطريق المستقيم، ارتقىٰ درجة أخرىٰ من درجات الاستدراج، فبيَّن له دوافع نصحه له، ودعوته له بقوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٥].

ويؤثر البيان القرآني علىٰ لسان إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ النداء السابق: (يا أبتِ)، وهذا النداء الرقيق قد تكرر علىٰ لسان الخليل ـــ عليه السلام ـــ لأبيه أربع مرات، وهذا الأدب إنما يوجبه حق الآباء علىٰ الأبناء، واتصاف الأنبياء به هو من دواعي وظيفتهم ومهمتهم في التبليغ، والوصول إلىٰ قلوب الناس بألطف طريق، وقد رسم القرآن هذا الطريق للداعية في قوله: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾ [سورة النحل:١٢٥].؛ إذ يجب علىٰ الداعية أن يتحلىٰ بالصبر والفطنة والحكمة، والأسلوب اللين الذي يجذب القلوب، ويؤلف الأفئدة، فلا ييأس علىٰ طريق الدعوة، بل يبذل مهجة فؤاده حتىٰ يؤدي الأمانة التي كُلِّف بها علىٰ أكمل وجه وأتمه.

إن من مظاهر استدراج الآخر إظهار منزلته في القلب، وبيان مكانته في الفؤاد؛ بإبراز شدة الحرص عليه، والخوف والقلق بشأنه، ومحاولة توجيهه إلىٰ ما فيه الخير له، ولا شك أن خوف المُحِب علىٰ حبيبه أن يمسَّه أدنىٰ لون من ألوان الأذىٰ، أو أقل القليل من أصناف الضرر فيه استدراج له،

واستمالة لقلبه بألطف الطرق، وهذا ما فعله الخليل ــ عليه السلام ــ حين خاطب أباه قائلًا: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٥].

والخوف: توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة[١]، وقد ذهب الفراء إلىٰ أنه بمعنىٰ: العلم[٢]، وهذا الرأي إنما يصح لو كان إبراهيم ــ عليه السلام ــ علىٰ علم بأن أباه سيموت علىٰ الكفر، ولكنه لم يثبت ذلك؛ لأنه من الممكن أن يؤمن فيكون من أهل الثواب، ومن الممكن أن يكفر فيستحق العقاب، والظاهر هنا أنه علىٰ أصل استعماله؛ وذلك أن إبراهيم ـ عليه السلام ــ لم يكن في وقت هذه المقالة يائس من إيمان أبيه، فكان يرجو أن يؤمن، وكان يخاف أن لا يؤمن، ويتمادىٰ علىٰ كفره إلىٰ الموت؛ فيمسه العذاب[٣].

كما أن التعبير بالخوف الذي يدل علىٰ الظن دون الجزم بمساس العذاب من باب الأدب مع الله ــ عزَّ وجلَّ ــ؛ حتىٰ لا يُثبِت أمرًا هو من فعل الله وإرادته، وفيه أيضًا إبقاء للرجاء في نفس والد إبراهيم ــ عليه السلام ــ ليتأمل حاله، وينظر في شأنه؛ علَّه يقلع عن عبادة الأصنام[٤].

---

(١) ينظر المفردات في غريب القرآن صـ٣٠٣ .

(٢) معاني القرآن للفراء (ت: ٢٠٧هـ) -٢/ ١٦٩- تحقيق: أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي- دار المصرية للتأليف والترجمة- مصر-الطبعة الأولىٰ.

(٣) ينظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي (ت: ٥٤٢هـ)- ١٨/٤- تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢ هـ.

(٤) ينظر التحرير والتنوير ١٦/ ١١٨ .

وفي إيثار لفظ (الخوف) نوع من الاستدراج لأبيه؛ إظهارًا لشدة حبه له، وخوفه عليه، وحرصه علىٰ ألا يلحق به أدنىٰ ضرر أو أذىٰ يتسبب في كفره بالله، وإشراكه به؛ فإن المُحِبَّ حريص علىٰ محبوبه، متفانٍ في إخلاص النصح له، مثابر في توجيهه وإرشاده إلىٰ ما فيه صلاحه، فكيف إذا كان المُحِب ابنًا والمحبوب أبًا ؟! لا شك أن هذا الحرص سيكون أشد، والمحبة أقوىٰ، والتفاني والإخلاص أولىٰ وأجدر.

وإيثار التعبير بالمصدر المؤول: ﴿أَن يَمَسَّكَ﴾؛ للدلالة علىٰ أن مجرد مساس العذاب أمر لا يطيقه بشر، ولا يتحمله أحد، فضلًا عن أن يمكث في العذاب خالدًا مخلدًا في جهنم؛ وذلك لدلالة الفعل المضارع علىٰ التجدد والحدوث.

ولا يزال إبراهيم ـ عليه السلام ـ يسعىٰ في دعوته بلطف، ويستدرج أباه برفق ولين، حيث آثر صيغة النكرة في لفظ (عذاب)، والتنكير هنا للتقليل؛ أي: عذاب قليل من الله الرحمن من شأنه أن يقضَّ مضجع من عصاه، فلا يهنأ له بال، ولا يسكن له قلب بمجرد أن يمر هذا الأمر علىٰ خاطره، أو يتصور وقوعه به، فقليل من عذاب الرحمن هو أعظم مما يتخيله بشر أو يخطر علىٰ قلب إنسان، وكأن الخليل ـ عليه السلام ـ يطفئ نيران صراع مشتعل في قلبه، فإنه خليل الله، يحمل صدره شدة البغض لمن عصىٰ الله، ويعادي كل من آذنه بالحرب، ومن جانب آخر يَعْظُم في قلبه أن يكون أبوه هو ذلك العاصي المعاند المحارب لربه؛ لذا فهو حريص أشد الحرص علىٰ إيمانه، باذلًا كل الجهد والتضحية لأجل هدايته.

ثم إن إبراهيم ـ عليه السلام ـ بعد أن حذّر أباه من سوء العاقبة لم يُصرِّح له بمماسة العذاب له؛ حيث آثر فعل الخوف مستقبلًا، وعبر بلفظ المس بعد دخول (أن) المصدرية عليه، ثم تنكير (عذاب) وعدم تعيينه؛ إعظامًا

لحرمة الأبوة، وإجلالًا وإكبارًا له وتحاشيًا عن التصريح بأن العذاب لاحق له، أو لاصق به، أو عن أن يكون هناك عذاب معهود يخاف منه، فكأنه قال: وما يؤمنك إن بقيت علىٰ الكفر أن تستحق عذابا عظيما عليه(١).

وإيثار لفظ (الرحمن) دون غيره من أسماء الله تعالىٰ وصفاته لون من ألوان استدراج إبراهيم ــ عليه السلام ــ لأبيه؛ لأن فيه من معاني الرحمة وسعتها، ومعاني العطف، والحنان، والأنس، والأمان، واللطف، والاطمئنان ما يستميل به قلبه، وما يفتح أمامه أبواب الأمل في قبول التوبة، ومن بشريات علىٰ الطريق بأن الله سيفيض عليه من عطاءات رحمته التي وسعت كل شيء، وكأنه بهذا اللفظ يضيء بصيص الأمل في قلبه بأنه مهما كان جرمه، ومهما كانت معصيته فإن رحمة الله تسعه، وعطفه وحنانه يشمله متىٰ عاد إلىٰ رشده.

ومن جانب آخر فإن التعبير بلفظ (الرحمن) يدل علىٰ أن أشد عقوبة يمكن أن يعاقب بها الإنسان هي الحرمان من رحمة الله؛ وفي هذا توبيخ وتبكيت وزجر له عن عبادة آلهته التي لن تنفعه إن هو حُرِم من رحمة الله.

كما أن وصف العذاب بكونه من الرحمن تنبيه علىٰ عِظَم الجرم الذي وقع فيه أبوه، وتفخيم لشأن الخطيئة التي ارتكبها حين عبد غير الله؛ لأن صدور العذاب ممن اتصف بصفة الرحمانية إنما يدل علىٰ شناعة ما ارتكب، وفظاعة ما جنت يداه، وفي هذا استدراج له بطريق يجعله يتأمل في حاله ومآله، ويستمع إلىٰ صوت ضميره إن كان منصفًا.

وخطاب إبراهيم ــ عليه السلام ــ لأبيه يجنح فيه إلىٰ الترغيب تارة، وإلىٰ الترهيب أخرىٰ؛ لأنه حريص علىٰ استجابة أبيه، مخلص في النصح له، ففي الوقت الذي يحذره من عقاب الله ــ عزَّ وجلَّ ــ ويبين له عاقبة أمره إن هو

(١) ينظر الكشاف ٣/ ٢٠، والطراز ٢/ ١٥٠ .

استمر علىٰ عناده وكفره، تجده لا يغلق باب التوبة أمامه، فيُذَكِّره برحمة الله وسعتها.

ثم يعود تارة أخرىٰ إلىٰ استدراج أبيه بالترهيب من سوء العاقبة فيخاطبه قائلًا: (فتكون للشيطان وليًا)، بتقديم الجار والمجرور (للشيطان) علىٰ المسند (وليًا)، فأفاد الاختصاص، وأشعر بمزيد من التخويف والتحذير؛ إذ من المعلوم أن الشيطان خالد مخلد في نار جهنم، وأن من والاه واتبعه فسوف يحشر معه، وكل عاقل لا يرضىٰ لنفسه هذه المنزلة، ولا يحب أن يتصور نفسه من أهلها.

و(**الولي**): "من الموالاة وهي المتابعة والمصادقة، والمراد تفريع الثبات علىٰ حكم تلك الموالاة وبقاء آثارها من سخط الله ـــ تعالىٰ ـ وغضبه"[1]، فقد رتب علىٰ مس العذاب ما هو أكبر منه، حيث جعل ولاية الشيطان ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه أكبر من العذاب[2].

وتنكير المسند (وليًا) يفيد التشنيع والتفظيع؛ فإن موالاة الشيطان الذي عصىٰ الرحمن جناية عظيمة يرتكبها في حق نفسه؛ إذ كيف يرضىٰ لنفسه أن يكون قريبًا من الشيطان أو مناصرًا لمذهبه أو متبعًا لنهجه؟!

هكذا تفانىٰ الخليل ـــ عليه السلام ـــ في النصح لأبيه، وبذل مهجة فؤاده من أجل أن يستجيب لدعوته، ويترك عبادة الأصنام، وهذا يدل علىٰ حرصه الشديد علىٰ قبول أبيه دعوته، وإنقاذه من مكائد الشيطان وإغوائه؛ وفاء لحق الوالد علىٰ ولده، وأداء لأمانة الرسالة التي أمره الله بتبليغها.

❁❁❁❁❁

(١) روح المعاني للألوسي ٨/ ٤١٦

(٢) ينظر الكشاف ٣/ ٢٠ .

المطلب الخامس

الاستدراج بترقيق القلب عن طريق الهجر والوداع

والمتأمل في الآيات السابقة يجد أن إبراهيم ــ عليه السلام ــ قد بذل غاية جهده في النصح لأبيه، وسلك معه كل طريق يمكن للداعية أن يسلكه، واستدرجه بأسلوب يتناسب مع أدب النبوة وحقوق الأبوة؛ إذ بدأ خطابه بالتنفير من عبادة غير الله، ثم محاولة إقناعه بإقامة الحجة، ثم بالنهي عن اتباع الشيطان، والتخويف والتحذير من مغبة الوقوع في معصية الله.

وبتدبر الآيات من بدايتها يُلحظ أن إبراهيم ــ عليه السلام ــ حاول أن يستثير دوافع الرد من أبيه، وأن ينشئ معه حوارًا بناءً؛ علَّه يصل من خلاله إلىٰ إقناعه، فأساس دعوة إبراهيم ــ عليه السلام ــ لأبيه قائمة علىٰ الحوار الذي يعد طريقًا من طرق الاستدراج، وسبيلًا من سبله، إن لم يكن أهمها؛ لأن المشهد الحواري له " خصائص تتمثل في التحام الزمن القصصي بالزمن السردي، فيصير بذلك حاضر السرد هو حاضر الأحداث، ويصبح المتلقي مشاهدًا يعاين الأحداث بنفسه، ويعيشها لحظة بلحظة "(١).

ولو تدبر الأب نصائح الابن البار به، وأنصف في التأمل لاستجاب لدعوته، وأذعن وامتثل للنصح؛ لأنه يدعوه إلىٰ ما يحييه، وما فيه صلاح دنياه وأخراه، ولكنها الأنفة والكِبر هما سبب الهلاك والوبال، فكان الأحرىٰ

(١) بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم ـ رسالة دكتوراه للباحث محمد مشرف خضر ــ صـ٢٠٧ ــ إشراف أ.د/ عبد الرحيم محمود زلط ، أ.د/ محمد عبد المطلب مصطفىٰ، أ.د/ مختار جبلي ـ جامعة طنطا ـ كلية الآداب ــ قسم اللغة العربية.

به أن يرد عليه، وأن يوضح لابنه وجهة نظره، أو سبب عكوفه علىٰ آلهته التي يعبدها، ولكنه الغرور والتكبر مع العجز عن مجاراة ابنه في الحوار، هذا الذي أصمت لسانه، وأذهل جنانه، وأذهب عقله، وأعجز فكره، فما كان منه إلا أن رد عليه بكل غلظة وجفاء، وفظاظة وكبرياء: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦].

والاستئناف البياني خير شاهد علىٰ عجز الأب عن الرد، ومحاولته قلب موازين الأمور؛ بجعل ابنه عاقًا خارجًا عن طوع أبيه، محاربًا لعقيدته؛ لأنه لا يريد أن يظهر أمام ابنه في صورة المخطئ، أو في صورة المنهزم؛ لذا جاء الاستئناف بقوله: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴾ جوابًا عن سؤال اقتضاه الكلام تقديره: فماذا كان جواب الأب بعدما نصحه الابن؟ فقيل: قال معاندًا ومستكبرًا بكل غلظة وجفاء: (أراغب أنت ...).

وهذا الاستئناف يحمل بين طياته كثيرًا من وجوه العناد والاستكبار:

وأولها: مقابلة الرد علىٰ إبراهيم ــ عليه السلام ــ بالاستفهام، وكان الأولىٰ أن يجيب ابنه بما يدفع عن نفسه، فالاستفهام في قوله: (أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم) فيه معنىٰ التوبيخ والإنكار ويكتنفهما التعجب؛ إذ لما لم يستطع الأب أن يرد عن نفسه، أو يجد جوابًا لأسئلة ابنه، أو يدافع عما هو عليه من باطل محض، لم يجد الأب بدًا من الغلظة والشدة في المعاملة، والإنكار علىٰ ابنه عدم اتباع ما عليه والده، وتوبيخه علىٰ تركه عقيدة أبيه، والتعجب من حاله، وإصراره علىٰ دعوته إلىٰ توحيد الله، وكأنه لما لم يستطع دحض حججه، لم يجد سوىٰ التقريع سبيلًا، والتوبيخ طريقًا ودليلًا،

والهروب بطريقة لا ينهزم فيها أمام ابنه، أو يظهر فيها بمظهر المغلوب العاجز.

كما أن الاستفهام السابق يشير إلىٰ رسوخ عبادة الأصنام في قلب الأب، وثبوت اعتناقه لها ثبوتًا غير قابل للجدال، واعتقاده بأن آلهته لا ينبغي لأحد أن يرغب عنها أو يعرض عن عبادتها؛ ولذا أضاف الآلهة إلىٰ الضمير العائد عليه في: (آلهتي) ولم يضفها إلىٰ: (قومه) ــ علىٰ الرغم من كون اتباع عقيدة الأهل والعشيرة هو أحد الأسباب الذي قد يتراجع المرء بسببها عن تغيير معتقداته، وكأنه يثير في إبراهيم ــ عليه السلام ــ مشاعر البنوة، التي توجب اتباع الابن لأبيه، والسير علىٰ نهجه؛ لأنه يعلم صلاح إبراهيم، وأن برَّه بأبيه قد بلغ منه مبلغًا عظيمًا، لكن أباه لا يعلم صمود إبراهيم خليل الله، وأنه مُبَلِّغ عن ربه دينه مهما وجد في السبيل إلىٰ ذلك من الصعاب والعقبات، ومهما لاقىٰ من أصناف الشدائد والابتلاءات.

وثاني أوجه العناد والإصرار والاستكبار: الإنكار علىٰ ابنه عدم اتباعه معتقد أبيه من خلال تقديم خبر المبتدأ في قوله: (أراغب أنت) ــ علىٰ الوجه القائل بالتقديم[1] ــ؛ اهتمامًا بالإنكار؛ لأنه كان أهم عنده،

(١) قوله تعالىٰ: (أَرَاغِبٌ أَنتَ): يجوز فيه وجهان، أحدهما: أَنْ يكون (راغبٌ) مبتدأ لاعتماده علىٰ همزة الاستفهام، و(أنت): فاعل سد مسد الخبر. والثاني: أنه خبر مقدمٌ، و(أنت) مبتدأ مؤخر ــ وذهب إلىٰ هذا الرأي الزمخشري في كشافه ــ ورُجح الأول بوجهين، أحدهما: أنه ليس فيه تقديم ولا تأخير؛ إذ رتبة الفاعل التأخير عن رافعه. والثاني: أنه لا يلزم فيه الفصل بين العامل ومعموله بما ليس معمولاً للعامل؛ وذلك لأن (عَنْ آلِهَتِي) متعلق بـ (راغب) ، فإذا جُعل (أنت) فاعلاً فقد فصل بما هو كالجزءِ من العامل، بخلاف جعله خبراً فإنه أجنبي إذ ليس

وتماديًا في المبالغة في التعجب أن يكون من إبراهيم مثل هذا، فشتان ما بين الخطابين من التفاوت في اللين والرقة والرحمة وحسن الاستدراج، فلله در الأنبياء! وما أجمل أخلاقهم، وأرق شمائلهم ؟[1].

ثالثها: الإطناب في خطابه لإبراهيم ـــ عليه السلام ـــ بإيثار ضمير الخطاب في: (أراغب أنت ...)، وكان من الممكن أن يقول له: ﴿ أراغب عن آلهتي﴾، وهو بهذا الإطناب يثير في إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ مشاعر الحرص علىٰ البر بأبيه؛ لأنه يعلم شدة حرص إبراهيم علىٰ البر به، وكأنه يرمي من وراء هذا الإطناب إلىٰ إشعار ابنه إبراهيم بقبح ما يفعل مع أبيه، وغرابة تركه معتقده والدعوة إلىٰ دين يخالف ما هو عليه.

ورابعها: إيثار أسلوب الالتفات بقوله: (أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم) فقد التفت من الخطاب في (أنت) إلىٰ الغيبة في (إبراهيم)؛ مبالغة في إنكار فعله، وتعجبًا من إصراره علىٰ الاستمرار في دعوته، فحين أراد أن ينبهه إلىٰ سوء ما فعل جعله في منزلة الغائب، وكأنه مغيَّب عن إدراك ما فعل.

خامسها: الغلظة والجفاء عند نداء ابنه؛ حيث ناداه بالاسم الظاهر (إبراهيم)؛ ولم يقل: يا بني أو يا ولدي، علىٰ الرغم من إثارة إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ مشاعر الأبوة فيه، ومناداته مرارًا وتكرارًا (يا أبتِ)، وهو بهذا

=معمولاً لـ(راغب). ينظر الكشاف ٣/ ٢٠ ، والدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (ت: ٧٥٦هـ) -٧/ ٦٠٥ - تحقيق: الدكتور أحمد محمد الخراط دار القلم، دمشق. والبحر المحيط ٧/ ٢٧٠ .

(١) ينظر الطراز ٢/ ١٥٠، والمثل السائر ٢/ ٢٠٨.

يتعمد إظهار إعراضه عن دعوة إبراهيم، وإصراره علىٰ العناد، وإبراز الغلظة والجفاء تجاه ابنه؛ عساه يقلع عن دعوته، ويتوقف عن نصحه.

سادسها: التهديد والتحذير من خلال إيثار أسلوب القسم؛ تخويفًا وترهيبًا وتحذيرًا من استمرار إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ في دعوته إلىٰ توحيد الله، والنهي عن عبادة الأوثان بقوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾، فاللام موطئة للقسم؛ تأكيدا لكونه لن يتراجع عن إيقاع أقسىٰ العقوبة بابنه إن لم ينته عن كفره بآلهتهم، فقد بلغ الغضب منه مبلغًا عظيمًا، ورأىٰ عند ابنه من الصبر، والحلم، واللين، وعدم اليأس، والصمود ما يجعله يوقن أن ابنه لن يتراجع عن دعوته، وأنه لن يكف عن التضحية لأجلها، مهما بذل في سبيل ذلك، وكأنه أراد أن يزعزع ابنه، وأن يبث الخوف والرهبة في نفسه؛ علَّه يتوقف عن دعوته، ولكن هيهات لإيمان ملأ القلب أن يخشىٰ في الله لومة لائم، إنها بشاشة الإيمان إذا خالطت القلوب لم تعبأ الأجساد بما أصابها من ضرر طالما كان هذا في سبيل ربها.

وآخرها: محاولة إنهاء الصدام والجدال من خلال التهديد بأسلوب القسم في قوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾، وعطف فعل الهجر علىٰ محذوف تقديره: (فاحذرني واهجرني)، وقد دل عليه قوله: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ ؛ لأنها تهديد وتقريع[1]؛ إمعانًا في الشدة والغلظة، ومحاولة إيقاف الحوار بينه وبين إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ؛ خشية أن يُفحمه في الجدال فيقنعه.

(١) ينظر الكشاف ٣/ ٢١ .

وإلىٰ هنا يوشك الحوار علىٰ الانتهاء، وتكتب صفحات النهاية آخر كلماتها، مؤذنة بأن إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ قد بلَّغ رسالة ربه، وأدىٰ حق الأمانة التي كُلف بها، أما أمر الهداية فليس الشأن شأنه، إنها إرادة الله التي لو شاء لهدىٰ الناس جميعًا، ولكنه يصطفي من عباده من يشاء.

ولعل إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ قد فهم من طلب أبيه: (واهجرني مليًا) أن أباه سيتأمل ما جاء به إبراهيم، وسيفكر جديًا في اتباعه، وكأنه وعده أن يراجع نفسه، ويتدبر في شأن ما يعبد؛ لذا أنهىٰ الخليل حديثه مع أبيه بقوله: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤٧، ٤٨].

ولا يزال الاستدراج ديدن خليل الله في نهاية حواره مع أبيه؛ وقد ظهر ذلك في إيثار الجملة الاسمية التي تفيد الثبوت والدوام في قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ ، والمراد بالسلام: التوديع والمتاركة، علىٰ طريقة مقابلة السيئة بالحسنة، أي: سَلِمْتَ مني لا أصيبك بمكروه أبدًا، ولا أشافهك بعد ذلك بأي لون من ألوان الأذىٰ[1].

ثم يستدرجه باللطف واللين وترقيق القلب عسىٰ أن يرق قلبه لولده، أو يميل له فؤاده، أو تغلب عاطفة الأبوة نوازع الأنفة والكبر، فيقول له: (سأستغفر لك ربي) أي: سأدعوه أن يغفر لك، ويتوب عليك، ويهديك إلىٰ

(١) اختلف أهل العلم في معنىٰ تسليمه عليه، فقال بعضهم: هي تحية مفارق، وقال الجمهور: ذلك التسليم بمعنىٰ المسالمة لا بمعنىٰ التحية، والمعنىٰ: أمنة مني لك. ينظر المحرر الوجيز لابن عطية ٤/ ١٩ .

الإيمان، وهذا الوعد من إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ قبل أن يتبيَّن له أن أباه سيموت علىٰ الكفر، فلما أيقن عداوته لله، ومات علىٰ الكفر تبرأ من أبيه وترك الدعاء له، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٤]

ومن بواعث اللين واستدرار عطف الأب وحنانه إيثار الفعل المضارع في وعده له بالاستغفار (سأستغفر لك)، وهذا إن دل فإنما يدل علىٰ حرص الخليل ـــ عليه السلام ـــ علىٰ هداية أبيه، وأنه لن يستسلم أو ييأس من الدعاء له، وسيتجدد هذا الاستغفار مرة بعد مرة، حتىٰ يكتب الله له الهداية ما لم يُنهَ عن ذلك.

ويؤيد هذا تقديم الجار والمجرور (لك) علىٰ المفعول (ربي)؛ اعتناء بشأنه، وتنويهًا بمنزلته في قلبه، وحبه الشديد له، ثم اصطفاء لفظ (رب) وإضافته إلىٰ ياء التكلم أشعر بمزيد الاعتناء والحرص عليه، والرغبة الشديدة في إقناعه وهدايته.

وإبراهيم ـــ عليه السلام ـــ في استدراجه يجنح إلىٰ ترك العطف بين جملة التوديع والترك في قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ وبين جملة الوعد بالاستغفار له: (سأستغفر لك ربي)؛ لكمال الاتصال، حيث نزلت الثانية منزلة التوكيد المعنوي من الأولىٰ؛ فإن الاستغفار سلام وأمان للعبد، وترك العطف بين الجملتين يوحي بشدة حرص إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ علىٰ هداية أبيه، لدرجة جعلته يطوي حرف الواو بين توديعه لأبيه وبين استغفاره له؛ مسارعة في

الدعاء له بأن يغفر الله له، وأن يهديه إلىٰ التوحيد، وذاك نوع من البر قد بلغ قمة الإحسان، ومنتهىٰ العطف والمحبة والحنان.

وإنما قدَّم السلام علىٰ طلبه الاستغفار لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ ؛ للدلالة علىٰ ثبات إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ علىٰ موقفه، وأنه ما ترك مناصحة أبيه ودعوته لاعتقاده صحة معتقده، وإنما تركها لأنه قد بذل جهده في النصح، وبلّغ رسالة ربه علىٰ ما ينبغي، وأن تهديد أبيه له بالهجر لن يؤثِّر عليه أو يجعله يتراجع طالما أنه ابتغاء وجه الله ومرضاته.

والحفيّ: البليغ في البر والإلطاف[1]، وجملة ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ تعليل لمضمون الكلام السابق وهو وعد إبراهيم بالاستغفار لأبيه؛ رجاء مغفرة الله له؛ استجابة لدعوته بأن يهدي أباه إلىٰ توحيد الله، وترك عبادة الأصنام.

وهكذا بذل إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ قصارىٰ جهده في دعوة أبيه، واستدرجه بشتىٰ سبُل الاستدراج، وسلك معه كل سبيل ينفذ منه إلىٰ قلبه وعقله ووجدانه، ومع ذلك أبىٰ الأب أن يستجيب لابنه، وأنِفَت نفسه اتباع طريق الحق الذي جاء به إبراهيم، فما كان من إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ إلا أن يعتزله بعد أن عجز عن إقناعه، وأن يدعو ربه بالهداية له.

❁❁❁❁❁

(١) الكشاف ٣/ ٢١ .

الخاتمة

١ ــ تنوعت طرق الاستدراج وتعددت وسائله في دعوة إبراهيم ــ عليه السلام ــ وكانت أولىٰ وسائله: إثارة غريزة الفكر لدىٰ المخاطب، وإقامة الحجة العقلية عليه؛ بجعله يتأمل في صفات معبوده التي تتنافىٰ مع صفات المعبود الحقيقي، فظهر في أعلىٰ صور اللطف في الخطاب، واللين في النصيحة؛ فأفحم الخصم بطريقة هي الغاية في الأدب، والقمة في حسن البيان، والروعة والجمال في الأخذ بالعقول والجنان.

٢ ـ اعتمد الاستدراج في دعوة إبراهيم ــ عليه السلام ــ لأبيه علىٰ أسلوب النداء، وقد تكرر أربع مرات، والنظم الكريم إذ يؤثره يستدعي به عاطفة الأبوة الجياشة، ويستدر حنان الأب وعطفه؛ لما لأسلوب النداء من إيقاظ المشاعر، وتنبيه العقول، وإثارة الأحاسيس، مما يجمع لُبَّ المخاطب وعقله، ويؤهله لما سيلقىٰ عليه، وهذا ما نادىٰ عليه الاستدراج باللين والرفق وحسن الأدب.

٣ ــ سلك البيان القرآني في الاستدراج طريق الترغيب والتحفيز والإغراء تارة، وطريق الترهيب والتحذير والتخويف تارة أخرىٰ، بالتنفير عن طريق الضلال، والتحذير من سوء العاقبة، أو بإظهار حرصه علىٰ أبيه، وخوفه أن يمسه أدنىٰ ضرر أو سوء، مما يؤذن بالحب الشديد له، فلم يترك استدراجه لأبيه مجالًا لادعاء حُجَّة باطلة، أو دليل مزعوم، مما يجعله يخلع ثوب العناد والأنفة والكبر ولا يجد بُدًا من اتباع الحق، ولكن هيهات لقلب طُمِس عليه أن يذعن أو يستجيب.

٤ ـ ارتدىٰ الاستدراج في الآيات الكريمة زي الحوار؛ لأن هذا الطريق من أنجح الوسائل في الدعوة إلىٰ الله؛ إذ يسمح بالمشاركة في

الحديث بين المتحاورين، ومحاولة كل طرف إبداء رأيه، وما يؤيده من دلائل وبراهين، ثم يترك حرية الاختيار واتباع الرأي الذي يبدو صوابه من وجهة نظر كل طرف، بحيث يظهر الحوار في صورة راقية، ومناقشة بناءة هادفة، دون فرض وجهة نظر بعينها، أو محاولة إجبار بقضية معينة، فهو يحفظ حقوق الأشخاص، ويحترم خصوصية الأفراد.

٥ ـ تعددت أساليب الاستدراج في الآيات الكريمة ـــ محل الدراسة ـــ ما بين استفهام وتأكيد ونهي وكناية وغير ذلك؛ لتحقيق الغرض الذي سيقت لأجله، وهو محاولة إقناع إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ لأبيه بتوحيد الله وترك عبادة ما لا ينفع ولا يضر، لم يترك في سبيل هذه الغاية طريقًا من طرق اللين والرفق في الدعوة إلا سلكه، ولا بابًا من أبواب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة إلا ولجه، وهذا ما اتضح من خلال الدراسة.

٦ ـــ وأخيرًا جاء الاستدراج بترقيق القلب عن طريق الهجر والوداع، فكانت دعوة إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ لأبيه توجيهًا للدعاة إلىٰ الله، ونبراسًا يضيء طريقهم في الدعوة، واضعًا لهم النهج الذي يسيرون عليه، والسبيل الذي يسلكونه؛ لأن القضية التي قامت عليها دعوة إبراهيم ـــ عليه السلام ـ لأبيه هي قضية التوحيد، ودعوة الناس إلىٰ عبادة إله واحد، رب السموات والأرض ورب كل شيء، وهذه القضية هي التي بُعث لأجلها كل الأنبياء والرسل السابقين، وسلكوا في سبيلها كل طريق.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

❁❁❁❁❁

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

-أساس البلاغة للزمخشري (ت: ٥٣٨هـ)- تحقيق: محمد باسل عيون السود- دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان – الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

-الأقصىٰ القريب في علم البيان للإمام زين الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن عمرو التنوخي – مطبعة السعادة – الطبعة الأولىٰ ١٣٢٧هـ.

-البحر المحيط في التفسير لأبي حيان محمد بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ)- تحقيق: صدقي محمد جميل- دار الفكر – بيروت- الطبعة ١٤٢٠ هـ.

-بلاغة السرد القصصي في القرآن الكريم ـ رسالة دكتوراه للباحث/ محمد مشرف خضر ـــ إشراف أ. د/ عبد الرحيم محمود زلط، أ. د/ محمد عبد المطلب مصطفىٰ، أ. د/ مختار جبلي ـ جامعة طنطا ـ كلية الآداب ـ قسم اللغة العربية.

-تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي (ت: ٩٨٢هـ)- دار إحياء التراث العربي – بيروت.

- تفسير البغوي = معالم التنزيل في تفسير القرآن لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: ٥١٠هـ)- تحقيق: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش- دار طيبة للنشر والتوزيع- الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

-تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن لمحمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الشافعي-إشراف ومراجعة: د/ هاشم محمد

علي بن حسين مهدي- دار طوق النجاة، بيروت – لبنان- الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١ م.

-تناسب سور القرآن للغرناطي (ت: ٧٠٨هـ)- تحقيق: محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.

-تناسق السور في تناسب السور للحافظ جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١ه)، تحقيق/ عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٦ه، ١٩٨٦م.

-الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور لابن الأثير الكاتب (ت: ٦٣٧هـ)- تحقيق: مصطفىٰ جواد- مطبعة المجمع العلمي- ١٣٧٥ه.

-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي (ت: ١٢٧٠هـ) تحقيق: علي عبد الباري عطية- دار الكتب العلمية – بيروت- الطبعة الأولىٰ، ١٤١٥ هـ.

-الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيىٰ بن حمزة، الحسيني العلويّ (ت: ٧٤٥هـ)- المكتبة العصرية – بيروت- الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٣ هـ.

-الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (ت: نحو ٣٩٥هـ)، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

-القاموس المحيط لمجد الدين بن يعقوب الفيروزآبادىٰ (ت: ٨١٧هـ)- تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة-بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي- مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت

– لبنان– الطبعة الثامنة، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

– الكشاف للزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) – دار الكتاب العربي – بيروت– الطبعة الثالثة – ١٤٠٧هـ.

–لسان العرب لابن منظور الأنصاري (ت: ٧١١هـ)– دار صادر – بيروت– الطبعة الثالثة – ١٤١٤ هـ.

– المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين بن الأثير (ت: ٦٣٧هـ) تحقيق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة– دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة.

–المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢هـ) تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد– دار الكتب العلمية – بيروت– الطبعة الأولىٰ – ١٤٢٢ هـ.

–مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لأبي الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (ت: ١٠١٤هـ)– دار الفكر، بيروت – لبنان– الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م.

–مصاعد النظر للإشراف علىٰ مقاصد السور للبقاعي (ت: ٨٨٥هـ)– مكتبة المعارف – الرياض– الطبعة الأولىٰ ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م.

–مصطلح "الاستدراج" المفهوم والأثر دراسة بلاغية، تأصيلًا، وتطبيقًا. تأليف د/ محمد بن عبد الرحمن الخراز ، أستاذ البلاغة والنقد الأدبي المشارك في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة القصيم ١٤٣٥ه، ١٤٣٦ه.بحث مستل من مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق، العدد الخامس والثلاثين، ٢٠١٥م.

–معاني القرآن للفراء (ت: ٢٠٧هـ)– تحقيق: أحمد يوسف النجاتي /

محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي- دار المصرية للتأليف والترجمة- مصر-الطبعة الأولىٰ.

-مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. لابن هشام (ت: ٧٦١هـ) ـ تحقيق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، دار الفكر – دمشق، الطبعة السادسة، ١٩٨٥م.

-المفردات في غريب القرآن للأصفهاني (ت: ٥٠٢ه)- تحقيق: صفوان عدنان الداودي- دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت، الطبعة الأولىٰ- ١٤١٢ هـ .

-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) - دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	٣٤٤
المقدمة	٣٤٨
التمهيد	٣٥٣
أولًا: مفهوم الاستدراج.	٣٥٣
ثانيًا: قيمة الاستدراج وأثره في تقرير المعنى.	٣٥٧
ثالثًا: علاقة الاستدراج في دعوة إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأبيه بسياق السورة.	٣٥٩
المطلب الأول: الاستدراج بإثارة غريزة الفكر وإقامة الحجة العقلية.	٣٦٣
المطلب الثاني: الاستدراج بالرفق والتواضع وحسن الأدب.	٣٦٩
المطلب الثالث: الاستدراج بالتنفير والتثبيط عن طريق الضلال.	٣٧٤
المطلب الرابع: الاستدراج بالتحذير من سوء العاقبة.	٣٧٧
المطلب الخامس: الاستدراج بترقيق القلب عن طريق الهجر والوداع.	٣٨٢
الخاتمة	٣٩٠
فهرس المصادر والمراجع	٣٩٢
فهرس الموضوعات	٣٩٦